بيت الذكريات

للأستاذ غائب طعمة فرمان

خمس عشرة سنة مضت وهو بعيد عن وطنه ؛ يعاني الآلام الغربة ، ويكافح أعباء الحياة ، ويتلمس الطريق إلى مستقبل جميل .

خمس عشرة سنة ألقى فيها أشد العناء ، وقاسى ضروباً من الفاقة والعسر وثقلت على عاتقه تكاليف العيش ... واليوم يرجع إلى وطنه بعد الكفاح المضنى ، والفراق الطويل ، وقد أعمى من عينيه إشراق الشباب ، وتحولت صباحة وجهه إلى جهامة منكرة وذبول حزين ... فقد حطم خمساً وثلاثين سلسلة من السلاسل التى تربطه بالوجود ، وأخذ يترقب الأنظار إلى الجانب الثانى من تل الحياة ليستقبل السلام الأبدى فى قرارة الوادى السحيق ! فلاح الإجهاد على محياه ، وغشيه موج من الحزن عميق

الآن يرجع إلى وطنه ، ويستقبل هذا الشارع الضيق الذى يعرفه حق المعرفة ، وتصدمه رائحة العفونة المنبعثة من أكوام الأقذار ، وتملأ عيناه بمنظر الأحجار التى ما زالت قائمة بها يد الإنسان ، ولم تنل منها صروف خمس عشرة سنة ! .

يا للعجب ! . . ويا لمرارة الذكرى ! . . خمس عشرة سنة ما أحفلها بالأحداث والغير ، وما أترعها بالشجون والغصص ، وما أكثر ما غيرت منه ، وما جارت على بنيانه الأنسانى ! ونقلته من حال إلى حال . ولكن الشارع ما زال كما عهده لم يتغير منه أى شىء ! . إنه ليتذكر كل شىء فيه كأنما غادره أمس . . رحل عند إغفاءة النهار فى أحضان الليل ، ورجع فى يقظة الليل على ترانيم الفجر ! . فإن صور الليلة التى غادر فيها موطنه ما زالت مرتسمة فى صفحة مخيلته ، وما زالت ظلالها الحية عالقة فى ذهنه . وإنه ليتذكر أمه وهى تتشنج لتمير عن عاطفتها الجيشة ، وتضطرب شفتاها كورقتين ذابلتين ، وتشرق عيناها بالدموع وهو بين ذراعيها غنوق البرة ، ذاهل الفكر ، مسلوب الإرادة .

وكان الطريق — إذ ذاك — متوشحاً رداء الغروب كأنه يحس بلوعة القلوب الواجفة ! ...

واليوم يرجع إلى أهله ، ونفسه مفعمة بالحزن العظيم ، ومشاعر لا يتبينها فى منظار ضميرة ، وفى عين وجدانه . ولكنه يضرب برجليه فى تراب الطريق الحائل اللون ، ويتعثر بحجارته الصغيرة السوداء ، وعيناه تحدقان بالبيوت القائمة على الجانبين كأنها تنتظره ! .

وامتلأت خياشيمه برائحة كان ينفر منها أشد النفور ، ويضيق بها أعظم الضيق ، ومع ذلك فقد كان يلقاها مكرها حين يخرج من بيته ، ويمر بها — صعوداً إليها — حين يعود إليه . ولكنه اليوم يحس إحساساً قوياً عنيفاً بأنها تعطر نفسه التى أفسدتها الغربة ، ودمرها الجفاف !

ما أجمل هذا الطريق ! وما أبدع ما سطر من ذكريات فى سفر السنين ، قليلها حلو سائغ ، وأكثرها مر مذوق فى المرارة ! فهو لا يكاد يذكر أنه قطعه مرة وهو خالى النفس من الألم ، صافى الفكر من الهواجس والظنون ، فكثيراً ما كانت تحتل نفسه بالألم ويحس بالضيق يدب فى مفاصله ، فيهرع إلى بيته يلوذ به من الهجير ويتقى تحت سقفه لوافح الألم وسموم الهواجس والظنون .

وقطع بعضاً من الطريق وهو يتلفت . كل شىء كما خلفه قبل خمسة عشر عاماً كأنما السنون تمر على جوانبه مر النسيم ! . وتمنى لو يدلف إلى بعض البيوت ليرى سكانها أتغيروا مثلما تغير وعضهم الدهر بنا جنبه كما عضه هو ؟ . ولا شك فى أنهم سينكرونه أشد الإنكار لما أصابه من شحوب عنيف ، وكبر بالغ ، حتى كأنه قطع خمسين حجة ، وأفضت به السن إلى كهولة واهية ! . فالشيب تسلل إلى شعره كما تتسلل الخيوط البيض من الفجر فى لمة الليل الفاحم والسنون اللاحقة بسموها أذوت نضارته ، وسيلته المرح ، وأهدته كآبة لاذعة ، ووجوماً ثقيلا .

ووصل إلى بيته ، وأطل على باحته من النافذة العالية ، وألقى نظرة واجفة على الداخل . على الجدران المسودة من لفح الدخان ، والأرض المهشمة البلاط ، وأبواب الغرف الضيقة المظلمة الأغوار ؛ ولمح فى تطواف عينيه كتلة بشرية جالسة القرفصاء ، ساندة رأسها على ذراعيها المتشابكتين .

وعرفها فتحركت فى أرجاء نفسه الأوادع . وجاشت لواعج وجدانه فناداها : — أماه ! ... أماه !

فارتفع رأس المرأة لجأة ، ونظرت عينان صغيرتان حائرتان ، وارتجفت شفتان ذابلتان ، واختلجت أسارير وجه معروق .

أماه ! لفظ جميل سرى فى جسدها كالتيار الكهربائى . . لقد أطال عهد سماعها به ، فلما سمعته ترددت فى أعماق نفسها أصداء بعيدة ، صادرة من ماض سحيق ، واعترتها رعشة . ودار فى خلدها أنها تعرف صاحب الصوت .

وتقدم المغترب خطوات ثقالا ، فلمحت الأم شبحاً يقبل عليها فنظرت بجهد إلى وجهه ، فلاح لها من بين أهداب عينها وجه شاحب هزيل . فتمتمت قائلة وهى لا تصدق ما رأت عيناها .

— عبد الرحمن ! ؟

وألقى الرجل جسمه فى أحضان أمه كالطفل الخائف من الأشباح ! ، وخمدت الدموع الشفاه الهمومة التى طفقت تعبر عن حنانها بالقبل النهمة ، وتفصح عن شوقها بالهمهمات .

وأرادت الأم أن تقول ولكن لسانها خانها ، فتلجلجت ، وتعثرت الألفاظ على شفتيها المرتجفتين ، فأمسكت رأس الرجل بيديها ، ونظرت فى عينه كأنها تريد أن تستطقها ، ولمتها لمات حرار وهى تبكى بصوت خافت .

ولم يستطع الرجل من جانبه أيضاً أن يعبر عن إحساسه إلا بشىء واحد وهو : أماه ... أماه ... بينما ظلت الأم تحت اللفظة السحرية تفكر وتحس نشوة من عبيرها الفاكى . ولكنها لا تعلك إلا الكلمات !

وأخيراً نطقت بصوت ترقرق فيه العبرة :

— أحق أن حلمى قد تحقق ، وأنك رجعت إلى بيتى بعد غياب طويل ! ؟

ومسدت بيديها شعره ، والتهمته بنظراتها وهو سامت بين يديها كالتمثال ...

قالت والعبرة لا تزال تقطر من ألفاظها :

— لقد عذبنى غيابك ، وفرى صبرى . لقد كنت أشفق عليك من أهوال الغربة ، وأخشى عليك انقطاع الأسباب بك . وبئس أهلك منك إلا أنا فقد كنت موقنة أعظم اليقين أنك سوف ترجع إلى يوما ما .

وضمته إلى صدرها كأنها تريد أن تطارد الوساوس التى تتناهبها . ثم قالت : — والآن رجعت . واستجاب الله دعائى وصلواتى . فقد كانت نفسى ممتلئة بك ، منتظرة إيابك ، تترقبه فى كل لحظة ، وتتعزى بالأمل عن نكد الدنيا وغصص العيش .

وخنقتها العبرة كالكابوس ، وتمرست فى وجهه الشاحب القطب المهيمن عليه الحزن والجهد ، وتطلعت إلى الجهامة المرتسمة على صفحاته . فأغمض الرجل عينيه واستسلم إلى ارتياح جميل !

وجاء أهله باشين به منهئين . يا عجباً ! كأنه لم يعرفهم . . إن خمسة عشر عاماً كفيلة بأن تخلق جيلاً جديداً ، وتباعد بين المغترب وأهله . وتخلق برزخاً واسعاً بينه وبينهم !

وطوف ببصره فى أرجاء المنزل ، منزل الذكريات . . يالله . ما أصلب هذا الحجر ، وما أعظم جبروته ! إن الكائن الإنسانى تهدمه معاول الدهر ، وتزعزعه نكبات الأيام ؛ أم الجلاميد فإن الدهر يترقرق من جوانبه كما يترقرق الماء الزلال من صخرة جلمود !

ووقع بصره على غرفته الخاصة فرأى بابها موصداً ، ورأته أمه يحدق فيها فقالت :

— إنها كما تركتها ؛ لم تطأ عتبتها قدم ، ولم تجل فى أرجائها عين . فقد كانت تذكرنا بك ، وتجعلك حاضراً معنا ، شاهداً على ما تلقاه من جراء غيابك . لقد أوصدت بابها فى اليوم الذى سافرت فيه ، ونلثات كلما تقع عينى على بابها المنان أتذكرك . ويخيل إلى أنك ما زلت فيها ، فتلفنى الذكرى ، وتتحير فى عينى الدموع ...

وجالت فى خاطره فكر ، وهبت فى مخيلته صور وأشباح . ونهض متثاقلاً كأنه يحمل على عاتقه خمسة عشر جبلاً من الهموم والأحزان ؛ ودفع باب غرفته فسمع لها ضريراً أقشعر له بدنه . ومال إليه أنه يلف إلى مقبرة ! . وطوف ببصره فى أرجاء الغرفة المرشة بخيوط العنكبوت ، المغبرة من تراب السنين . وجلس على كرسيه المنطى بطبقة سميكة من التراب ، وأسند كوعه على المكتب أمامه ، وظل يحدق فى سقف الغرفة المخنق وراء طبقة من الظلام ، وأخرى من نسيج القدم !

وتدفقت عليه سيول من الأفكار كما تتدفق الأنوار على كهف مظلم مهجور ! .

ورأى نفسه يلقى على عاتقه خمس عشرة سنة من الزمن ،

وأكثر منها في عمر العاطفة والشعور . وقال في نفسه :

— هنا .. وقبل خمس عشرة سنة كان يعيش شاب .. ابتلى بحمى العاطفة !

وارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة .. كأنه يسخر من ذلك الشاب الثمل من الأشواق ! . . وراح يستطلع ما خبأه في كوّة الماضي البعيد ...

إنه ليتذكر الماضي على أحسن صورة . . كأنما الأشياء كلها وقعت بالأمس — يتذكر ذلك الشاب الزنق البعيد الآمال ، المجنون بحب المستحيل ، السارى في دياجي الأحلام ، العبد الذليل لعواطفه ! ويتذكر كيف أنه كان يضيق بالحياة ، وتمتلئ جوانب نفسه بالثورة على كل شيء ، ولأي شيء ... وإنه ليتذكر ليلة كان القمر يخط سطراً كبيراً في صفحة وجوده . . سطراً يحسبه كالعنوان لقصة حياته المملة التي فقدت عنصر التشويق . . تلك الليلة التي لقيها فيها . . إنه ليتذكرها — فتاة السابعة عشرة غضة لينة ، تنطق قسمات وجهها بما يعيث في نفسه الحائرة برد الاطمئنان وقد سحرته عيناها البراقتان ، وبثتا سحرهما في قلبه الضعيف الأسوار ! . وألهبتا وجدانه ، فكان يهرب إليها من جحيم واقعه لينظر إلى سواد عينيها . إلى تلك البحيرة التي تعكس أنوار مستقبله

كانت « سناء » جارة الجنب يراها كل يوم ... زهرة ندية فياضة بالعطر والندى .. فيتطلع إليها ، وتصده نظرات من عينيها ذوات سنان لم يعرفها وهو ابن العشرين ... ولكنه كان يحس في قرارة نفسه بأن النظر إليها شيء جميل جداً ورائع جداً . . وكان سحر العيون أشد من كل سحر قلبه ، لا يستطيع أن يرده بإرادة ولا أن يخمده ببرود . . وكانت عيناها البراقتان كفيلتين بإذكاء النار الخامدة في قلبه ! ... وأي شيء كان أضعف من قلبه ؟!

وشعر بأنها هي الأخرى تحبه ، فقد انبجس له من افتراز شفتيها ، وانطلاق روحها ، وانبساط محياها أمل حلو في أنها تحبه ، وتبادله عاطفة بعاطفة مثلها . . وإنه لن ينسى تلك الليلة الحلوة الملتهبة عندما رجع إلى البيت فرآها تنتظره بقوامها الرشيق ، وتحرك أوتار قلبه بابتسامتها ، وتحدثه بعينيها الحسنى التعبير .. وعندما اقترب منها عبق في وجهه عطر خدّر أوصاله !.. وعندما دلف إلى بيته كانت شفتاه تدبتين ! . . وكان حبه قد أينع من ثمر حلو المساغ !

وأطلت من شفتي عبد الرحمن ابتسامة وقد وصل إلى هذا الموضع وقال في نفسه :

— هذه القمة السامقة من كل حب . ولكن لابد للإنسان من الانحدار حين يصل إليها

— لقد صدق الفرنسيون حين قالوا : « الحب يولد بالنظر ، وينمو بالقبل ، ويموت بالدموع » !.. فلابد من الدموع

وكأنه أحس بمرارة الدموع . . فقد كانت القبل تسكره ، وتذهب بأتزانه .. فهام مع أحلامها في واد محرم . . وظل يهوم فيه حتى استفاق على صوت أبيها يزجر ويقطع كل سبب من أسباب حبه .

هناك أدرك الإعياء ، وغارت قواه . . ولاحت له الدنيا منارة مخيفة !.

وتذكر ليلة الوداع . . حين جاءت إليه تودعه ، وتلقى في مسامعه كلمات تزيده لوعة وهي المرأة الضعيفة ... وقالت له :

— إنها ستحيا من أجله . ومن أجل شيء أعز عليها من نفسها.

واختلجت في صدر عبد الرحمن لواعج وأشجان وهو يسترجع موقفه معها ، ويرى في عينيها قصة آمال محطمة ، وخيبة مريرة فيقول في سره :

— الحياة رحلة مضنية ! أدنى ما ينال المسافر منها التعب ، وأقرب ما يطرق باب نفسه فيها الإجهاد والضيق . . ثم السأم المطبق .

وأحس بأن غرفته أصبحت سجناً مظلماً ، وذكرياته أشباحا مريبة . فضاق صدره وطلع منها لعل الفضاء والنور والهواء النقي يطرد أشباح الماضي وأطيافه المقيتة !

واستقبله شاب في الخامسة عشرة ، منطلق الأسارير ، براق العينين ، مؤتلق الشباب . فنظر إليه طويلاً كأنه يعرفه . فقالت له أمه:

— هذا جميل .. ابن سناء . .

وارتجفت شفتاه وهو ينظر إلى وجه الشاب المتفائل وفي أرجاء نفسه سمع صوتاً ينادي :

— والدي !..

غالب طعمة فرحات

زوروا :

متحف فؤاد الأول

(أمام مخزن بضائع محطة مصر)
أسكك حديد تلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

لتشاهدوا تطورات وسائل النقل البرية والبحرية والجوية فى مختلف الأزمان واقتروا أكبر وأدق مجموعة من النماذج والخرائط والصور المضاءة لتاريخ النقل فى مصر والخارج

المتحف مفتوح للزيارة كل أيام الأسبوع ما عدا أيام الإثنين والعطلات الرسمية كما يأتى :

فصل الشتاء — من أول نوفمبر إلى آخر أبريل
من الساعة ٣٠ ٨ إلى الساعة ٠٠ ١٤

فصل الصيف — من أول مايو إلى آخر أكتوبر
من الساعة ٠٠ ٨ إلى الساعة ٣٠ ١٣

خلال شهر رمضان { صيفاً : » ٠٠ ١٠ » ٣٠ ١٣
شتاء : من الساعة ٠٠ ١٠ إلى الساعة ٠٠ ١٤

رسم الدخول ٢٠ مليماً

تليفون رقم ٤١٩٦٤

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بإدارة البلديات العامة (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٩٤٩/١٢/١٩ عن عملية بياض وترميم أحواض الترسيب بمصلحة المجارى بالسويس . وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٢٠٠ مليم خلاف أجرة البريد. وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى قدره ٢ ٪ لا يلتفت إليه .

٣٤٨٩

وزارة الأشغال العمومية

مصلحة الميكانيكا والكهرباء

مطلوب تقديم عطاء لغاية ظهر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ عن توريد وتركيب الكابل الكهربائى الخاص بإنارة مستشفى الحميات بكفر الدوار . ويمكن الحصول على دفتر الشروط مقابل جنيه مصرى للنسخة الواحدة بخلاف ٦٠ مليما أجرة بريد ويقدم تأمين ابتدائى بواقع ٢٪ مع العطاء وإلا فلا يلتفت إليه .

٣٥١٣